رؤية مقاربة بين آراءِ طه حسين وزكي مبارك في نشأة النثر الفني العربي

الدكتور نعيم عموري (الكاتب المسؤول)
أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها جامعة شهيد تشمران أهواز - إيران
n.amouri@scu.ac.ir
ولي بهاروند
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة شهيد تشمران أهواز ـ إيران
طالب الدكتوراه محمد ظهيري
قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة شهيد تشمران أهواز ـ إيران

A Comparative Study of the Criticism Views of Taha Hussein and Zaki Mubarak on the Origin of Artistic Prose

Dr. Naeem Amouri
Associate Professor Department of Arabic Language and Literature Shahid Chamran University of Ahvaz, Iran (Responsible author)
Dr. Vali allah baharvand
Assistant Professor Arabic Language and Literature Shahid Chamran University of Ahvaz , Iran
mohammad zehayer
phd student of Arabic Language and Literature Shahid Chamran University of Ahvaz , Iran

الملخص:-

دون أدنى شك إنّ اهتمام النقاد العرب القدامي بالنثر القديم كان أقلّ من اهتمامهم بالشعر فلهذا طمست آثاره و كاد أن يمحو حتى ظنّ بعض النقاد أن الأدب العربي في عصوره التليدة أو الغابرة يخلو من النثر حتى نهاية العصر الأموي و بداية العصر العباسي فهذه كانت نظرية خطيرة على الأدب العربي و من أتباع هذه النظرية الدكتور طه حسين في كتابيه "الأدب الجاهلي" و"من حديث الشعر و النثر" الذي أنكر وجود النثر الفني في العصر الجاهلي و العصور التي تلته (الاسلامي و الأموي) وكان منبع و خيط هذه الفكرة عند طه حسين ممتد من المستشرقين أمثال موسيو مرسيه و كارلو نالينو و هاملتون جب سنبين تاثيره و إقتباسه من هذه الفكرة و إستدلاته كانت يتم صلتهما بهذه النظرية الاستشراقية و تصدي له من أرباب الفكر والعقول الدكاترة زكي مبارك في كتابه "النثر الفني في القرن الرابع" الذي إستقي نقده من القرآن الكريم و إستمد ببعض آياته لوجود النثر لدي العرب في تلك العصور وايضاً إستند بثقافة خطباء صدر الاسلام مثل الإمام علي عليه السلام كدليل لوجود النثر الفني ودلائله كانت اكثر تلائم مع الحقيقة و الواقع نحن في هذا المقال نريد ان ندرس كل من هذه النظريتين على حده و نبيين الصواب و الخطاء فيهما حسب ماذكر في ماثور الادب العربي و ايضاً تبيين منهجهما النقدي الذي بنيا عليه نظرياتهما في دراستهما لنشأة النثر الفني و المنهج المتبع في هذه المقاله توصيفي-تحليلي.

الكلمات المفتاحية: النثر الفني، طه حسين، زكي مبارك، الموازنة، المناهج النقدية.

Abstract:-

Prose in ancient Arabic literature, as one of the literary genres, was neglected. This inattention by contemporary critics, especially Orientalist scholars, precluded the existence of this type of literature in the pre-Islamic era, and negated the formation of this type of literature, and Linked that to the early Abbasid era with the emergence of Ibn al-Muqafah.

It was a very dangerous theory that attacked Arabic literature. One of the most important supporters of this theory was Dr. Taha Hussein, whose echoes can be clearly seen in books such as 'Fe al-Adab al-Jahli' and 'men Hadith al-Sha'ir and al-Nasr'. On the other hand, intellectuals such as Zaki Mubarak in his book" Artistic prose in the fourth century" were called upon to reject this theory and stand up against this dangerous assault.By combining the two views and examining their critical approaches, we conclude that Dr. Taha Hussein's views on the emergence of Artistic prose reflect the views of Eastern scholars such as Carlo Nallino and Hamilton A. R. Gibb and William Marcais.But Dr. Zaki Mubarak with historical and aesthetic analysis of the literary prose works of the pre-Islamic period, as well as citing the existence of great saints such as Imam Ali in the early days of Islam associated with the pre-Islamic period well and the revelation of the Holy Quran with rich vocabulary and rhetorical treasure, In his literary views, emphasizes the existence of inequality, which is more corresponded with the fact of the emergence of Artistic prose, and we have used a descriptive-analytic approach in this paper. And we used the descriptive-analytic method in this paper.

Key words: Artistic prose, Taha Hussein, Zaki Mubarak, comparative, criticism school.

١ـ المقدمة:

ينقص الأدب العربي القديم التدوين لأنَّ العرب كانوا أميين في ذلك العصر و عدم شيوع الكتابة في البيئة العربية أدى إلى ضياع كثير من الآثار الأدبية و بسبب هذا، النصوص الادبية التي وصلت إلينا لا تزال ينظر إليها النقاد بعين الشك و الارتياب وهذه النظرة تزداد ارتياباً عند قراءتهم للنثر الفني و نشأته في العصر الجاهلي فلهذا كانت آراؤهم متباينة و مختلفة حول نشأة النثر الفني في الأدب العربي منذ أقدم العصور و لهذا ظهرت ظاهرة نقدية في تلك العصور تسمي بأسبقية النثر على الشعر أو بالعكس أو أيهما أسبق إلى الوجود فكل ناقدٍ حسب فكرته و دراسته أعطي الاسبقية لنوع من هذين النوعيين مثلاً ابن رشيق قد أشارٍ في كتابه العمدة إلى هذا السبق فقال: "كان الكلام كله منثوراً فإحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها..... فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تمَّ لهم وزنه سموه شعراً لانهم شعروا به، أي فطنوا به[1]"وهذا الرأي يعكس وجهة نظر ابن رشيق القيرواني أسبقية النثر تاريخياً وقد امتدَّ هذا النقاش إلى عصرنا الحديث وفي القرن العشرين شهد الادب العالمي تطوراً عظيماً من حيث المذهب و المنهج و ظهرت مدارس و مناهج نقدية جديدة و عند احتكاك العالم العربي بالغربي تغلغلت هذه المناهج النقدية إلى الادب العربي وأخذ المستشرقون يتعمقون و يبحثون في الآداب العربية حسب مناهجهم النقدية الجديدة - ولاننسى أهواءهم و انحيازاتهم في دراسة هذه الآداب من سياسية و ثقافية ودينية و.....- و نلاحظ عند دراستهم للآداب العربية تضاربت آراؤهم فيها و منهم من أعترف بها و منهم من شكك فيها ولم يعطيها حقها خاصة النثر العربي حيث اعتبروه من الآثار الاسلامية و أنكروا وجوده في العصر الجاهلي وأخذت تنتشر هذه الآراء رويداً رويداً في قاطبة بلاد العرب و أضافة على ذلك كثير من أدباء العالم العربي أصبحوا تلامذة هولاء المستشرقين و تأثروا بأفكارهم و مناهجهم النقدية فهذا أدى إلى انتشار معارك أدبية عنيفة بين من شايعهم و قلّدهم في آرائهم واصرَّ على تطبيق مناهجهم على الادب العربي و مقايسة الادب العربي بآدابهم مثل الدكتور طه حسين وبين من تصدّي لهم و أنكر آراءهم مثل الدكتور زكي مبارك فنحن بهذا المقال نهدف دراسة آراء الدكتور طه حسين في نشأة النثر الفني التي صرّح بها في كتابيه في الأدب الجاهلي و من حديث الشعر و النثر و ايضاً

آراء الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني في القرن الرابع، و **اهميةِ البحث و ضرورته** تتبين في الاهتمام بدراسة النقد الأدبي لدي ناقدين عملاقين في أدبنا العربي وقد جاء أختيار الموضوع من الأهمية النابعة و الحضور المميز للنثر في أدبنا الحديث و ايضاً مناقشة آراء الناقدين حول النثر الفني ونشأته و مناهجهما النقدية يكشف عن أدلتهما و أفكارهما النقدية و يعمل على تفسير جوانبها و إبراز خفاياها و يبين كيفية تعاملهما في مواجهة آراء و المستندات حول نشأءة النثر التي صرّح بها المستشرقون و حاولنا أن ندقق النظر و نترصد لدراسة مناهجهما النقدية التي اِستخدموها في كتبهما التي ذكرناها وتطرقنا إلى البحث من خلال المنهج الوصفي - التحليلي حيث استقصينا آراء طه حسين و زكي مبارك حول نشأة النثر الفني ثمَّ قمنا بتحليل أدلتهما و أهم ما كان يرتكزان عليه في نفيهما و إثباتهما للنثر الفني في العصر الجاهلي و بالتالي استقرينا مناهجهما النقدية التي استخدماها في بحثهما حول نشأة النثر الفني واضافة على ذلك راجعنا بعض البحوث التي عولجت فيها هذه القضية و إستخرجنا منها كل ما يمدنا في هذا البحث. فإذا أردنا أن نقدم خطة منهجية لبحثنا هذا فإليكم هذا الخطة: تحري المصادر و المراجع، استخراج المعلومات ودراستها و تحليلها والأهداف التي نرجو ان نتوصل إليها من خلال هذا البحث فهي تبيين الرؤيتين و تحليلها و الموازنة بين دلائل الناقدين وكشف الحقيقة عن واقع نشأة النثر العربي و كشف خيوطهم الفكرية و مناهجهم النقدية التي عالجا فيها هذه القضية في الادب العربي وفي هذا البحث نحاول الإجابة على هذه الأسئلة التي تطرح نفسها و هي:

- ماهي روية النقاد طه حسين و زكي مبارك حول نشأة النثر الفني و أيهما كان أكثر تاثيراً من المستشرقين؟
- ايهما كان اكثر مرونة في تطبيق المناهج الغربية المستحدثه على الادب العربي خاصة في بحثه حول النثر الفني؟
- ما هي أهم أسبابهما في إثبات و نفي نشأة النثر الفني في العصر الجاهلي؟

١-٢ فرضيات البحث

- نزول القرآن الكريم بهذا المستوي الفني و البلاغي يدلُ على بلاغة مخاطبيه في ذلك العصر.

- اصرار طه حسين على تطبيق المنهج التاريخي و الشك الديكارتي في دراسة النثر أدى به إلى سلوك الطريق الخطاء و كانت أفكاره تنص على أفكار أساتذته أمثال كارلو نالينو و وليم مرسيه.
- تردد زكي مبارك في النصوص النثرية الجاهلية كما شك بها الدكتور طه حسين لكنه استشهد بالقرآن كبديلاً لهذه النصوص و جعله شاهداً لإثبات النثر الفني في العصر الجاهلي.
- جعل طه حسين الادب في خدمة المنهج لكن زكي مبارك اتخذ المنهج وسيلة لدراسة الادب.

١-٣ خلفية البحث

على الرغم من الدراسات النقدية الكثيرة التي تناولت دراسة جوانب كثيرة عندكل من طه حسين و زكي مبارك الا أنَّ مسألة الموازنة و المقارنة بين الكاتبين لآرائهما في النثر الفني لم تحظ بعناية نقدية كبيرة و نستطيع أن نقول اقتصرت العناية بمرور كمرور الكرام لآرائهما في النثر الفني و نشأته بعيدة عن التحليل و التدقيق لعل أبرز هذه الدراسات، دراسة عبدالله، احمد باقازي و هي رسالة نوقشت في جامعة ام القري في المملكة العربية السعودية و عنوانها ((الاتجاهات النثرية في القرنين الثاني و الثالث للهجرة))حيث تتشكل الرسالة من مقدمة و تمهيد و اربعة ابواب و خاتمة و الكاتب يشير إلى آراء زكي مبارك و طه حسين في نشأة النثر الفني اشارة بسيطة و نظره يوافق نظر الدكتور زكي مبارك اما المبحث الثاني الذي تطرق إلى هذه الفكرتين التي كان يمتلكها الدكتور طه حسين و زكي مبارك هي رسالة نوقشت في جامعة العلامة الطباطبايي في ايرانَ للدكتور نعيم عموري و عنوانها ((الدكاترة زكي مبارك ناقداً)) وهي تتشكل من ستة فصول و خاتمه والكاتب درس آراء زكي مبارك في مجالات شتي و عند دراسته لآراء زكي مبارك في النثر العربي وازنه موازنة بسيطة مع الدكتور طه حسين و ايضا حصلنا على ترجمة لنظرية ويليام مارسيه التي عنوانها((اصول النثر الأدبي العربي)) لمحمود مقداد طبعت في مجلة التراث العربي (ربيع الثاني،عام ١٤٠٥، عدد ١٨).

وعندما اتم الترجمة وأوضح آراء ويليام مارسيه جاء بنظرات حول آراء وليام مارسيه من ضمن هذه الآراء ذكر آراء زكي مبارك و طه حسين و بين وجهة نظرهما حول هذه

النظرية و يقول: في حين يخرج مارسيه، القرآن الذي يقر بأنه وثيقة تاريخية لا يتطرق إلى صحتها أدنى شك من حيز النثر، لسبب ضعيف واهٍ، وفي حين يخرج طه حسين القرآن من الشعر والنثر ويجعله نوعاً قائماً بذاته ويطلق عليه اسم القرآن يذهب زكي مبارك إلى الرأي المذكور آنفاً من أن القرآن يمثل تمثيلاً دقيقاً النثر الجاهلي و حالته[٢]. و خلال بحثنا و متابعتنا لآراء الناقدين طه حسين و زكي مبارك تبين لنا بأنَّ النتاج الناقدين النقدي مازال يحتفظ بجدته و رونقه و كما ذكرنا آنفاً لم نتوصل إلى دراسة آكأدىمية حول تحليل آراءهما في نشأة النثر الفني وكل ما هو موجود القليل من الاطلالات النقدية العابرة في بعض مقدمات الكتب التاريخية فنستيطع أن نقول إنَّ هذه الدراسة هي الدراسة الأولى التي القت الضوء على آراء طه حسين و زكي مبارك حول نشأة النثر الفني.

٢- تحديد مفهوم النثر الأدبي

النثر لغةً: من ماده النثر يقال: نثر الشيء نثراً او نثاراً مثل نثر الحب أي رمي به متفرقاً، وهو التوزيع بلا نظام و قياس فالمعني اللغوي هو الشيء المتفرق دون أساس في تفرقه[٣]. و يقول صاحب قاموس المحيط: نثرَ الشئ ينثرهُ، و ينثِره نثراً، و نِثاراً: رماه متفرقاً كنثّرة و تنثرو تناثر،و النُّثار بالضم، و النثر بالتحريك: ما تناثر منه[٤].

٣- النثر اصطلاحاً

النثر أدب إنشائي، و هو نوعان: الأول: النثر العأدى الذي يدور في كلام الناس أثناء المعاملة أو هو الذي يعرف بلغة التخاطب و التفاهم بين الناس، أو هو الكلام اليومي العأدى الذي يتحدثه الناس، و هو غير فاقد لبعض عناصر النثر الفني و الثاني: هو النثر الفني الذي يخضع لنظرية الفن، أو الذي يغلب عليه الاسلوب الفني، و الذي يحتوي على عناصر فنية نذكر منها، الافكار، و حسن الصياغة، جودة السبك، مراعاة قواعد اللغة..... و مع ذلك لا يفقد العاطفة و الخيال و النثر الفني ينقسم بدوره إلى خطابة و عمادها اللسان، و كتابة فنية و عمادها القلم[٥].

٤- المناهج النقدية

المنهج و هو شعبة من شعب النقد الأدبي بطابع خاص قد يكون قاعدياً يزاوله صاحبه في ضوء القواعد الكلاسيكيه كلاً او جزاً، أو تاريخياً يدرس صاحبه النص في إطاره الزمني،

أو يخضع النص أو صاحبه للعلم الصرف[٦]. فلهذا يعتبر المنهج هو الطريق الذي اذا حدد من قبل الباحث لابد و أن تكون من ورائه فلسفه، و تتضح فلسفه المنهج بالاجابه على السؤال لماذا يختلف الباحثون و يتفقون في التعرف على الموضوع الواحد؟ يختلف الباحثون و يتفقون حسب المواضيع، و الفلسفات التي من ورائها، و الاطار المرجعي لكل منهم، و السبل التي يبتغونها في تحقيق الاهداف[٧]. أثرت هذه المناهج بالأدب بدراستهما للأدب و تشعبها ايضاً و لأنها درست العمل الأدبي و الأدیب و المجتمع و السياسة و الاقتصاد و الفلسفة و..... من منظار الأدب و هي سريعة الانتقال من أدب إلى أدب آخر[٨]، و نستطيع أن نحدد هذه المناهج و هي المنهج الفني و المنهج التاريخي و المنهج النفسي و من مجموعة هذه المناهج قد ينشأ لنا منهج أدبي كامل للنقد الأدبي، ندعوه المنهج المتكامل[٩] وهذا لايعني أن نطبّق نفس هذه المناهج الواردة التي عاشت في بيئة غير بيئتنا على أدبنا كما أخطأ بعض النقاد المحدثين الذين نسوا أو تناسوا مناهجهم النقديه، فقبلوا هذه المناهج الغربيه التي عاشت في بيئة و أدب غير أدبهم و طبقوا هذه المناهج على أدبهم[١٠].

٥- آراء طه حسين في النثر الفني

كان طه حسين يعتقد بأنَّ الأدب الجاهلي يخلو من النثر الفني و يقول: ((و الواقع أننا لانستطيع بحال من الأحوال - مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي وعشاقه- أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فني،و الذي ليس فيه شك أن أقدم نص يمكن أن نطمئن اليه هو القرآن[١١])). وهذه نظرية الدكتور طه حسين الذي أدّت إلى معارك أدبية عديدة و هو يستند إلى تأييد نظريته بعدة دلائل الذي سنذكرها فيمايلي و هي:

❖ ((عندما نلاحظ تاريخ الأمم التي كانت لها حياة أدبية و كان لها شعر و نثر نلاحظ أن حياتها الأدبية قد بدأت شعراً و أن الشعر وجد فيها قبل أن يوجد النثر بزمن طويل لذلك نلاحظ تاريخ الأمم كالأمه اليونانية مثلاً، نراها أولاً شاعرة، تنشئ الشعر قصصياً ثم غنائياً ثم تمثيلياً، و لا ينشأ النثر عندها إلافي وقت الاضطراب السياسي الذي تتغير فيه نظم الحكم و الحياة الاجتماعية[١٢].....

❖ تشتد الصله بين اليونان و الأمم الشرقية و الغربية المختلفة و تنشأ أفكار جديدة منها السياسي و منها الفلسفي و منها الديني هنالك تضطر إلى ان تعبر عن هذا كله و يعجز

الشعر عن أن يسعه، فينشأ النثر، مثل هذا نجده عند الأمة الرومانية[١٣])).

فهنا نلاحظ تظهر عنده فكرة المقارنة و المقايسة بالأمم الأخرى و كان يمتلك هذه العقلية المقارنة والتي لاتفتأ تقارن بين ألادب العربي و أدب سائر الأمم مثل الأدب اليوناني و الفارسي و الروماني و لاشك إنَّه تاثَّر بفكرة المستشرقين التي لاتزال تقارن بين ألادب العربي و ألادب اليوناني و الروماني القديم و من الواضح انَّ طه حسين قد اطلّع على بعض ما كتبه المستشرقون من بحوث و دراسات في مطلع العصر الحديث في ألادب الجاهلي و خاصة في النثر الفني و نشأته و علل إنكاره من قبل المستشرقين خاصه كارلو نالينو و ويليام مارسيه المستشرق الفرنسي حيث يقول في بحثه حول النثر الفني: ((ولن أدهش أحداً بالتاكيد على أن ألادب العربي ككل الآداب كان النثر فيه إبتكاراً متاخراً نسبياً، و قليلاً جداً من الشعوب هو الذي إبتكر النثر ابتكاراً عفوياً و يبدو أن بعض هذه الشعوب لم يحاول ذلك قط و أن بعضها الآخر يتوصل اليه، أما الشعوب التي نجحت في المحاولة تلك بطيئة جداً وقد سبق الشعر النثرَ في كل مكان على مايبدو و يكفي أن أذكر مثلا من شعبين ناثرين كبيرين هما: اليونان و نحن (الفرنسيين) ولم يكن أحد من المجتمعات البشرية ذات الطابع الجاهلي يخلو من إمتلاك شعر خاص به، غير أن أحداً منها لا يبدو و أنه قد إمتلك أدباً نثرياً[١٤])). و نري هنا المستشرق الفرنسي يقارن بين الأمم لكي يصل إلى نتيجةٍ يستطيع أن يعمها على الأدب العربي و خاصة النثر الفني و برأينا التقط الدكتور طه حسين هذه الفكرة الخاطئة في كل بحوثه من المستشرقين و في النثر الفني خاصة من ويليام مارسيه و يتواصل القول ويليام و يقول و يمكن أن نوكد هنا في الوقت نفسه. أننا لا نمتلك سطراً أصيلاً واحداً من النثر في جزيرة العرب قبل الاسلام، وأن النثر في الواقع كان مجهولاً في العصر الجاهلي[١٥].

❖ ((نحن نعرف أن الشعر أقدم عهداً من النثر، و أنه أول مظاهر من مظاهر الفن في الكلام؛ لأنه متصل بالحس و الشعور و الخيال و.. فالنثر اذن متاخر حديث العهد بالقياس إلى الشعر، و هو لا يظهر و لا يقوي عادة إلا حين تظهر في الجماعة و تقوي هذه الملكة المفكرة التي نسميها العقل[١٦].))

هنا نريد أن نشير إلى العامل الأساسي الذي أسهم في بلورة الوعي النقدي عند طه حسين فهي القراءة الحديثة للنص الإبداعي القديم التي تلقاها على أيدي جملة من أساتذته

المستشرقين خصوصاً المستشرق كارلو نالينو الذي اثر تاثير بالغ في فكره النقدي و في آرائه التي أصدرها و يقول الدكتور كارلو نالينو في حديثه عن النثر الفني ((إني ذكرت في أحد الدروس السابقة أن ابتداء الآداب عند كل اُمة كان بالشعر مع كون الكلام المرسل المعتاد أقدم من المنظوم بكثير. و ذلك أن الكلام العادى لا ياخذ بمجامع القلوب فليس كفياً بالتعبير عن حُميا العواطف و شدَّة الطرب أما الشعر فبانسجامه و وزنه يحرّك أهواء النفوس و يثير كامن حركاتها و هو ألذُّ في الأسماع و اشدُّ وقعاً في القلوب من الكلام المنثور و لاسيما إذا أُنشد على الغناء و الطرب كما كانت العادة فيه عند كل الامم القديمة فالنثر أجدر من الشعر باظهار بنات الأفكار و الشعر أجدر من النثر بإبداء ما يكنّه القلب أو يتصوره النفس بلا تفكر و تعمّد. و بما أن القوة الخيالية عند كل امة غلبت أولاً على القوة الفكرية و النظرية ومال الإنسان إلى ما إستحسنه قبل ميله إلى إدمان الفكر في الأشياء. ولاعجب في سبق الشعر لسائر الفنون الأدبية المستظرفة.اما الإنشاء المنمق البعيد عن كلام المرسل المعتاد لم ينشاء إلا في وقت بلوغ الإمم درجة أعلى في سير ترقيها في المدنية و الآداب[١٧])) و عند التدقيق في نظرية كارل نالينو يتبين لنا أنَّ هذه النظرية تعكس كالمراة بعض أفكار الدكتور طه حسين في النثر الفني لا نريد أن نغلو و نقول أنَّه سرق هذه الأفكار لكن عند تلمذته لهذا المستشرق و قراءته لكتاباته و أفكاره أصبحت أفكارهم متشابكة ومتقاربة تنص بعضها على بعض والدكتور طه حسين استمدَّ بها في طرح نظريته حول النثر الفني في العصر الجاهلي. و على حد قول الدكتور عبدالعال سالم مكرم ((إنّ النثر الأدبي أسبق من الشعر، لأن النثر وليد العقل و نتاج الفكر، و لا يمكن بأية حالٍ من الأحوال أن يكون هناك شعور و احساس و خيال و عاطفة إلا اذا ارتكز ذلك كلّه على العقل و التفكير و إلالكان هذا الشعر اصواتاً لا تبين، و كلمات ممزقة مقطعة ليس بينها رابطة، لأن الذي يرتب الكلام و ينظم الشعور، ويختار لفظاً على لفظ و يضع جملة على جملة إنما هو أولاً و اخيراً العقل و الفكر[١٨])) و هنا يتضح لنا إنَّ وراء هذا الانتاج الأدبي الهائل في العصر الجاهلي قوة فكرية و عقلية رصينة و إلا هل يكون من المعقول أن الله تعالى يخاطب أُناس أوليين ساذجين لا يتمتعون بقوة العقل و التفكير ويتحداهم و يقول تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١٩] وعند نزول هذه الآية و هذا التحدي العظيم

عجز أرباب العقول و الكلام أن يأتوا بسورة من مثله فأصبح القرآن معجز نصر الله به نبيه محمّد ﷺ و عند عجزهم ادخلوا في دين الاسلام افواجاً. و بكلام آخر إن وجود الشعر في الأمم القديمة هو تتويج لتاريخ طويل من التطور في الأساليب النثرية فيها، و من غير معقول أن يحظي الشعر بهذا الأهتمام الأدبي، و يهمل الصنو الآخر، أعني النثر الذي هو أيسر سبيلاً و أخف طريقاً[٢٠].

❖ ((أنَّ القرآن ليس نثراً، كما أنه ليس شعراً انما هو قرآن، و لا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم[٢١]وليس شعراً - وهذا واضح- فهو لم يتقيد بقيود الشعر، وليس نثراً لأنه مقيد بقيود خاصة به، لاتوجد في غيره و هي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة[٢٢])).

كما ذكرنا يقول الدكتور طه حسين إنَّ القرآن الكريم ليس بنثر ولا شعر، انما هو قرآن والدكتور يرجع كلمة قرآن إلى أصلها في اللغة السريانية، فهي هناك تعطي معني الجهر. ومقصد الدكتور من ذلك، فيما يبدو ان القرآن من كتب التراتيل و الدعاء الديني و لهذا كان المسلمون في الصدر الأول يترنمون بتلاوة القرآن كأنَّه كان عندهم نوعاً من الصلاة[٢٣]. نعم هو قرآن في قوة الأداء و بلاغة التعبير، لكن العباره نفسها و هي مناط الحكم من صميم النثر في أسمي درجاته الفنية و سمو الدرجة لا يخرجه من دائرة النثر و إلا فكيف معجزاً لأرباب البيان و هو يجول في ميدان لم يطرقوه ؟ تري..... اذا عجزنا عن مجاراة الجاحظ في رسائله أو البديع في مقاماته.....ألا يكون ذلك نثراً مع سمو منزلته و عجزنا عن مساماته[٢٤]؟ لهذا نستطيع أن نقول القرآن نثر لا شعر وفيه مع ذلك كل ما في الشعر من ايحائية و خيال وثاب و صور معبرة و الفاظ مختارة اختياراً معجزاً، فهل ينقص من قيمة القرآن الجمالية أنه نثر لا شعر؟ و اي شعر في الدنيا أروع و أحب من هذا النثر القرآني المسكر[٢٥]؟

((❖ النثر العربي الذي ليس لغة تخاطب و لا الأحاديث العادية و الذي لا يعبر عن عاطفة أو شعور من حيث هي عاطفة أو شعور، بل من حيث هي صورة عامة يظهر فيها نتيجة التفكير، هذا النثر أثر من آثار الحياة الأسلامية الجديدة ظهر في الإسلام و لم يكن موجوداً[٢٦] و.....فأول القرن الثاني للهجرة هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية، وهو الذي شهد مظهر هذه الحياة العربية و هو نشأة النثر الفني[٢٧])).

الدكتور طه حسين بهذه النظرية أنكر وجود نثر الفني في الجاهلية وصدر الاسلام ربما تاثَّر بفكرة المستشرق هاملتون جب حيث يقول: ((لقد أكد البعض أنه كان للعرب بالفعل آداب نثرية في العصر الجاهلي و وهنا نسأل هل من الممكن أن نصدر بياناً قاطعاً في هذا الصدد سواء أكان بالتاييد ام الدحض؟ انني اعتقد أنه لم يقم برهان حتى الان على وجود اي آداب نثرية مدونة بين العرب الذين سكنوا جزيرة العرب[٢٨])) والدكتور طه حسين يعزو نشأة النثر الفني إلى القرن الثاني و برأينا أجحف في حق ألادب الاسلامي الخالص الذي تغذي من ينابيع أصيلة و هي اللغة العربية الخالصة في العصر الجاهلي لأنه كان قريب و متواصل مع ذلك العهد و ايضاً اللغة الدينية الحديثة و هي لغة قرآن الكريم و كيف الدكتور طه حسين لا يشير إلى خطب امير المؤمنين على بن ابي طالب عليه السلام حيث يري كل ناقد بصير تفوُّق رسائله و خطبه على رسائل وكتب عبدالحميد الكاتب و ابن المقفع و على حد تعبير ابوهلال العسكري لا نري اختلاف بين الرسائل و الخطب و هو يقول: ((و اعلم أنَّ الرسائل و الخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن و لا تقفية و قد يتشاكلان ايضاً من جهة الألفاظ و الفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتّاب في السهولة و العذوبة، و كذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرسائل..... ولا فرق بينهما ألا أنَّ الخطبة يشافه بها و الرسالة يكتب بها، و الرسالة تجعل خطبة و الخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة[٢٩].)) و على أساس هذا التعريف يتبين لنا أنَّ وجود النثر الفني في خطب الأمام و رسائله خصوصاً عهده إلى مالك الأشتر واضح و ربما يكون أظهر من الشمس ولكن ماهو الحاجب الأساسي الذي منع ان يؤرخ الباحثون في تاريخ الأدب العربي من مستشرقين و غيرهم لكتابة النثر الفني من زمن الإمام علي عليه السلام؟ و نستطيع نرد هذا كله إلى الحياة السياسيه في العصر الأموي و هو الصراع المرير بين أمية و هاشم أو بين أنصار الإمام و بين الأمويين، مما أدى إلى تكتم السلطة عن تدوال رسائل الإمام و خطبه وكتبه،لأنها كانت تحمل مضامين سياسية و عقائدية و ليس من صالح الأمويين العمل على نشرها، فبقت مغمورة إلى زمن الشريف الرضي في القرن الخامس الذي عمل على جمعها و تأليفها من بطون الكتب[٣٠]. و في فترة الأنغمار هذه لا نجد أي تاثير لهذه الرسائل و الكتب، مع أن الإمام فيها قد إمتلك زمام الكلام، ووجوه البلاغة و البيان و بلغ الغاية في فن النثر الأدبي والجمالي. اللهم إلا بعض الشهادات، و من عبدالحميد نفسه حيث سئل عبدالحميد:((ما

الذي خرَّجك في البلاغة؟ فقال: حِفظ كلام الأصلع)) يعني بذلك أمير المومنين وأمام البلغاء على بن أبي طالب عليه السلام[٣١].

آراء الدكتور زكي مبارك في النثر الفني

الدكتور زكي مبارك يبدأ حديثه في كتابه النثر الفني بهذه الكلمة حيث يقول: ((هناك رأي مثقل بأوزار الخطاء و الضلال و هو رأي المسيو مرسيه و من شايعه كالدكتور طه حسين و ذلك الرأي يقضي بأن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية و الحياة الاولية لا توجب النثر الفني لأنه لغة العقل، و قدتسمح بالشعر؛لانه لغة العواطف و الخيال[٣٢])) ثم نفسه يجيب على هذه الشبهة بمنطقه و نقده الفني و يقول: ((العصر الذي سموه بالأولية عند العرب هو القرن الخامس للميلاد و في ذلك العصر كان النثر الفني موجوداً عند اكثر الأمم التي جاورت العرب أو عرفوها كالفرس و الهنود و المصريين و اليونانيين؛ و ليس بمعقول أن لتلك الأُمم نثر فني قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ثمَّ لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون، كأن العرب انفردوا في التاريخ القديم بالتخلف في ميأدىن العقل و المنطق و الخيال[٣٣].)) و رأي الدكتورزكي مبارك أنّه كان للعرب قبل الاسلام نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم و سلامة طباعهم، ولكنه ضاع لاسباب أهمها شيوع الامية و قلة التدوين و بُعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الاسلام.

من هنا يتبين لنا أنَّ الدكتور زكي مبارك كان يعتقد بوجود النثر الفني في العصر الجاهلي و من أهم النقاط التي كان يرتكز عليها هي:

((-انَّ ثقافة خطباء صدر الاسلام أمثال الإمام علي بن أبيطالب و عمربن الخطاب و إسلوبهم الرصين دليل على وجود مجموعات كثيرة جيدة من الشعر و النثر و الخطب و الأمثال في العصر قبل الإسلام[٣٤]))

يشير الدكتور زكي مبارك إلى خطباء صدر الاسلام و هو بذهنه الوقاد و تحليله العميق و إشرافه على الأدب العربي و تاريخه إلى نقطة هامة حيث إنَّ نمو الخطابة في العهدين النبوي و الراشدي لا يمكن أن يكون طفرة في المجتمع الاسلامي بل هو ظاهرة على تراكمات تتصل بالعهد الجاهلي و الخطابة موجودة و ظاهرة في العصر الجاهلي، فهي نثر ينقصه التدوين فقط و هي أبرز لون نثري في العصر الجاهلي و يذكر لنا الجاحظ شيئاً عن مكانة

الخطيب فيقول: ((و قال أبوعمرو بن العلاء: كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجاتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم و يفخم شأنهم، و يهول على عدوهم و من غزاهم و يهيب من فرسانهم و يخوف من كثرة عددهم و يهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم فلما كثر الشعر و الشعراء و اتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، و تسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[٣٥].)) انَّ النثر في العصر الجاهلي من خطب ووصايا و حكم و أمثال قد لعب دوراً هاماً اقتصر على قلة من الناس دون غيرهم، وقد خلفوا لنا تراثاً ضخماً على قلته منه ما يصور حياتهم على إختلاف أنواعها، ومنه ما يدل على رقيهم الثقافي و العقلي فكان الخطيب منهم يطلق الامثال، فيتناقلها الناس حيث كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة و لعل موقف الرسول صلي الله عليه و آله وسلم من الوفود التي قدمت عليه يعطي صورة واضحة لرقي النثر حينذاك فكان يقول حين يستمع إلى بعضهم عندما يخطب:((انَّ من البيان لسحراً[٣٦])) فلهذا نري الخطابة كان لها دور بارز في الحياة العربية قبل الاسلام من النظر في طبيعة نشأتها فقد نشأت كحاجة عضوية اي نشأت في وسط اجتماعي أمي لا يقرأ و لا يكتب ثم جاء القرآن الكريم توكيداً لهذه الحاجة خاطب أميين و لذلك خاطبهم بشكل يأسر أسماعهم و قلوبهم معاً، بحيث يؤخذون به و ينقادون اليه و من هنا جاءت بنية آياته، في معظمها خطابية[٣٧].فلا شك انَّ هذه البنية الخطابية لآيات القرآن الكريم قد بلورة الخطابة في العصر الاسلامي ونلاحظ إنّ الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام كان أعظم من تأثر بأسلوب القرآن الكريم و إحتذي به في رسائله و خطبه، فالمعروف عن الامام إنه عاش في بيت النبي (صلي الله وعليه وآله وسلم) منذ طفولته ومعني هذا إنه كان يستمع إلى آيات القرآن و هي تنزل تدريجياً و إنهماك الامام في جمع القرآن و قرأته كان من الأسباب التي جعلت من هذا الرجل خطيباً مصقعاً و قد يصح القول بأن علياً كان أعظم خطيب شهده صدر الاول و قد ظهرت براعته الخطابيه ظهوراً بيناً عندما تولي الخلافة بعد مقتل عثمان[٣٨].من جهة أخرى إذا أردنا مقايسة الأساليب النثرية في النهج مع نظيرها في القرآن الكريم و نثر الجاهليين، وجدنا أن النهج يجسد أنموذجاً فريد لأثر القرآن في النثر العربي بأشكاله من خطب و رسائل وكتب لأنه يحمل نفس خصائص القرآن و الجاهلية، من أداء المعاني بأوجز العبارات، و الدلالة على المراد من دون تنكب طريق الاختصار، مع مجافاة التطويل و الاطناب والهذر،

والاعتماد على تضمين كثير المعاني في قليل الألفاظ[٣٩].

((- انَّ وجود النثر الفني في القرن الخامس للميلاد عند أكثر الأمم التي جاورت العرب أو عرفوها؛ كالفرس و الهنود و المصريين و اليونانيين هو دليل على وجود النثر الفني[٤٠])).

الكتب الدينية و الأدبية القديمة التي يشير إليها القرآن الكريم و كثير من الأمم القديمة كان لها نثر فني قبل الميلاد بكثير، فلليونانيين آثار كبيرة في الخطابة من قبل الميلاد بقرون عديدة و للرومانيين آثار فيها قبل الميلاد و بعده فلم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون، على أن لعبد الحميد الكاتب آثار كبيرة في النثر الفني و هو قبل ابن المقفع، و القدماء من النقاد يؤيدون سبق النثر للشعر، فإبن الرشيق يقول((كان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها و طيب أعراقها فتوهموا أعاريض جعلوها موازين للكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعراً[٤١])). فهنا الدكتور زكي مبارك يشير إلى دليل ينطبق مع قوة العقل حيث أكثر الدول المجاورة للجزيرة العربية كانت لهم آداب نثرية و العرب كانت لهم مراوداة تجارية و سياسية كثيرة مع تلك الدول كما كانت لهم مواقف كثيرة مع الأكاسرة في الحيرة و كان بعضهم يعملون عند الأكاسرة كمترجميين و مشاوريين و لابد نقلوا بعض الآداب و المفاهيم إلى بلادهم حيث نري إنَّ بعض الكتب التاريخية تشير إلى أنَّ قصة رستم و اسفنديار كانت تتناقل على السنة الجاهليين في أسمارهم و لياليهم فالتأثير و التأثُّر في آداب الدول المجاورة أمر طبيعي فللعرب في العصر الجاهلي قصص و روايات و أمثال و خطابات و كل هذا يجعل في خانة النثر الفني و أميتهم و سذاجتهم لا تتنافي مع النثر الفني و قد تطور الخطاب النثري في الأدب العربي مع تطور الحياة العقلية و الحضارية للأمة العربية إذ بمجي الإسلام ازداد الاهتمام بالكتابة لأن الانتقال من النزعة الشفاهية إلى النزعة الكتابية على مستوي الإبداع و الفكر قد حدث مع نزول القرآن الكريم[٤٢].

((- إن لدينا شاهداً من شواهد النثر الفني في العصر الجاهلي يصح الإعتماد عليه وهو القرآن الكريم..... و لا ينبغي الإندهاش من عدِّ القرآن اثراً جاهلياً فإنه من صور العصر الجاهلي إذا جاء بلغته و تصوراته و تقاليده و تعابيره و هو بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرده بصفات أدبية لم تكن معروفة في ظنِّهم عند العرب يعطينا صورة للنثر الجاهلي[٤٣])).

فلا مفرَّ إذن من الاعتراف بأن القرآن الكريم يعطي صورة صحيحة من النثر الفني لعهد الجاهلية؛ لأنه نزل لهداية اولئك الجاهليين و هم لا يخاطبون بغير ما يفهمون و النبي صلي الله عليه و آله وسلم جاء لإرشاد قومه و أمرهم بالمعروف و نهيهم عن المنكر في الحدود التي رسمها الدين الحنيف، ولم يكن القرآن إلَّا اداة لنشر الرسالة الكريمة التي أعزت العرب بعد ذُل، وهدتهم بعد ضلال(نفس المصدر و الصفحة). فالدكتور زكي مبارك بهذه الدلائل الدامغة يوضِّح ويشرح تاريخ النثر و يبين انَّ الله عزوجل خاطب العرب بلسانهم و بلغتهم و بمفاهيمهم و بالصور البيانية التي كانت توجد في كلامهم فهذا الكم الهائل من الاساليب البلاغية الموجودة في القرآن الكريم دليل على قوة بيان و لغة المخاطب في ذلك العصر فلهذا تحدي الله عزَّ وجل اولئك القوم أن ياتوا بكلام او بسورة من مثل القرآن لأنَّ أقوي سلاحهم كان ألسنتهم الذربة و القوية و أراد الله ان يلتمس إسكاتهم بما هم فيه أقويا. النثر الفني في العصر الجاهلي حقيقة لا تقبل الشك وواقع لا يقبل الجدل، ويكفي دليلاً على ذلك أن القرآن نزل بلغة النثر و ليس بلغة الشعر، و تحداهم في المجالين، فإن لم يكن للعرب نثر، فَلِمَ التحدي، و التحدي لايكون إلا للأقوياء وكيف يتحدَّي القرآن الكريم قوماً لغتهم كلغة الاطفال، أو أن النثر في عهدهم كان يحبو و لم يصل إلى طور الشباب و القوة؟ذلك منطق مرفوض و قضية خاسرة(٤٤). ان القرآن الكريم كان يفهمه العرب جميعاً كما يقول الدكتور زكي مبارك لأنه نزل على قوم ربّوا في الفصاحة و نشأوا في حلبة البلاغة من أجل التحدي ليكون دليلاً واضحاً على أنه ليس من كلام البشر، و إن كان نسيجه من لغتهم و الفاظه من الفاظهم، فاذا لم يستطيعوا التحدي و عجزوا عن المنافسة، فمعني ذلك ان القرآن الكريم معجزة نبيه الخالدة على وجه الزمن و على حد قول ابن خلدون " ان القرآن الكريم نزل بلغة العرب و على أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه و يعلمون معانيه في مفرداته و تراكيبه(٤٥).

دراسة المناهج النقدية عند طه حسين وزكي مبارك

عندما ندقق في دراسة الدكتور طه حسين للأدب الجاهلي يتبين لنا أنه يعتمد على فكرة المقارنة بين الأدب العربي و آداب الامم الأخرى حين يربط فهم الآداب العربية بفهم آداب الامم الأخرى من اليونانية و الفارسية و الرومانية حيث يقول:((كيف السبيل إلى أن يدرس

الادب العربي درساً صحيحاً اذا لم تُدرس الصلة المأدىة و المعنوية بين اللغة العربية و اللغات السامية و بين الادب العربي و الادب السامي ؟ و هل هناك سبيل إلى أن يدرس الادب العربي دون أن تفهم التوراة و الانجيل و هل تظن أن بين شيوخ الادب في مصر من قرأ التوراة أو قرأ الانجيل؟ و كيف السبيل إلى درس الادب العربي اذا لم ندرس اللغة اليونانية و اللاتينية و آدابهما و لم نتبين مقدار ما كان لحضارة اليونان و الرومان من تاثير في ادبنا و فلسفتنا و علمنا..و هل تظن من شيوخ الأدب في مصر من قرأ الياذة هوميروس و إنياده فرجيلو... و كيف السبيل إلى درس الأدب العربي اذ لم ندرس اللغات الاسلامية المختلفة و لاسيما الفارسية منها و نتبين ما كان لهذه اللغات و آدابها من تاثير في أدبنا العربي الذي لم ينشأ في برج عاج و انما تاثر بألادب المختلفة و أثر فيها، و هل تظن أن من شيوخ الأدب في مصر من قرأ الشاهنامة أو ألمَّ بشيء من شعر عمر الخيام أو من شعر السعدي أو الحافظ و...[٤٦])) و هذه الموازنة بين الادب العربي و غيره عند طه حسين ترجع صلتها إلى أثر كارلو نالينو فيه كما يقول الدكتور جابر عصفور: ((لقد تعلم طه حسين من كارلو نالينو في الجامعة المصرية القديمة إمكانية أن ندرس الادب العربي على أساس من الموازنة بينه و بين الآداب القديمة الكبري، و لقد تبلور وعيه بضرورة هذه الموازنة في فرنسا فأكد بعد عودته منها: أن الادب بطبيعته شديد الحاجة إلى المقارنات و الموازنات[٤٧])) و هو استناداً على هذه الفكرة يرجح أسبقية الشعر على النثر حيث يقول: ((عندما نلاحظ تاريخ الأمم كالأمة اليونانية مثلاً نراها اولاً شاعرة، تنشئ الشعر قصَصياً ثمَّ غنائياً ثمَّ تمثيلياً و لا ينشأ النثر عندها إلى في وقت الاضطراب السياسي، الذي تتغير فيه نظم الحكم و الحياة الاجتماعية و تشتد الصلة بين اليونان و الأمم الشرقية و الغربية المختلفة و تنشأ أفكار جديدة منها السياسي و منها الفلسفي و منها الديني و هناك تضطر إلى أن تعبر عن هذا كله و يعجز الشعر أن يسعه، فينشأ النثر و مثل هذا نجده عند الأمة الرومانية[٤٨])) فهذه من ميزات المدرسة الفرنسية التي تستخدم المنهج التاريخي في الدراسات المقارنة و تستعين بهذا المنهج التاريخي لإثبات عملية التاثير و التأثر بين الآداب و من هنا يتبين لنا انَّ طه حسين وعي بهذا المنهج و طبقه في بحثه هذا. لكن زكي مبارك يرجح أسبقية النثر للشعر و يدرس النثر في بيئته العربية حيث يعتمد على الادب العربي نفسه فيرجع قلة النثر و إهماله إلى نفسية العرب حيث كانوا يطربون بالشعر اكثر من النثر و يهمتون به أكثر لأنه أعلق

بالذاكرة وحفظه بسبب وزنه أسهل و أيسر حيث يقول: ((و إيثار الشعر على النثر له مظاهر كثيرة في البيئات العربية لهذا ابوبكر الخوارزمي الذي كان يحفظ نحو خمسين الف بيت من الشعر لم يعرف عنه أنه إهتم بحفظ الرسائل حتى ذكروا أنه لم يحفظ غير رسالة واحدة هي كتاب الصاحب إلى بن العميد جواباً عن كتابه عليه في وصف البحر و في الواقع أنَّ الشعر أقرب إلى النفس من هذا الناحية و هو بالذاكرة أعلق و على الألسنة أيسربفضل القوافي و ألاوزان[٤٩])). وهنا نلاحظ الدكتور زكي مبارك بتحليله للبيئة العربية في العصر الجاهلي يصل إلى هذه النتيجة العلمية التي تلائم العقل و المنطق و هذا النقد يجعل في خانة النقد التاريخي حيث الناقد يدرس بئية الادب و يكشف الوثائق التي تُمدنا في فهم الحقيقة و الواقع وتكشف الستار عن الوجه الغامض من الادب و هو لايكتفي بما أكتفي به النقاد من أنَّ ذلك العهد كان له أدب فضاع فسكتوا عنه بل إنَّه تطرّق إلى عقلية الامم في ذلك العهد، فتاريخياً كان الفرس و الهنود و المصريون و اليونان يعرفون النثر الفني بسبب نضج عقولهم و هذا الامر قبل الميلاد بخمسة قرون، و هو يوكد أنَّ العرب سُكان الحواضر كانت لهم صلات مع تلك الامم و قد نضج عقولهم و تتطور أمور حياتهم بسبب اتصالهم و يستنكر أن لا يكون لهم نثر فني بخمسة قرون بعد الميلاد و يصرّح بضياع ذلك النثر لاسباب ذكرها منها عدم الاهتمام بحفظها[٥٠].

أما النقطة الثانية التي نريد أن ندرسها هي وجهة النظر المشتركة بين طه حسين وزكي مبارك و التشكيك في صحة ألآثار النثرية التي وصلت لنا من العصر الجاهلي ونري الدكتور طه حسين يدرسها في ظلال المنهج التاريخي و الشك الديكارتي حيث يقسم العرب إلى قسمين عرب الشمال و عرب الجنوب و يرفض من غير تردد كل ما يضاف إلى عرب الجنوب من نثر قبل الاسلام و دليله لهذا الرفض هو: ((انَّ النثر الذي يضاف إليهم كالشعر قد روي بلغة قريش التي لم يكن لهم بها علم فيجب ألا يكون صحيحاً ثم يتواصل البحث حول عرب الشمال فيقول: امّا عرب الشمال فلابد من أن نقف من نثرهم موقفنا من شعرهم و لعلَّك تذكر انَّا نرفض اكثر الشعر الذي أُضيف إلى ربيعة و نحتاط أشد الاحتياط في سائره الذي نشاء في عصر متاخر جدا كشعر الاعشي. فنحن نقف هذا الموقف نفسه مما يضاف إلى ربيعة و غيرها من عرب العراق و البحرين و الجزيرة نرفضه و نكاد نقبل منه شيئاً فلم يبقَ الا المضريون... فليس من البحث العلمي في شيء أن نعتمد على الرواية

وحدها في النثر فنحن مضطرون إلى ان نرفض الكثير الذي يضاف إلى المضريين[٥١]) و يرفض كل الخطب التي تضاف إلى وفود العرب عند كسري و السجع الذي يضاف إلى الكهان و الكلام الذي يضاف إلى قس بن ساعدة و الحكم و الوصايا التي تضاف إلى حكمائهم و عظمائهم و دليله هو لأنك تسطيع ان تقرأها و تنظر فيها لتردها كلها إلى العصور الاسلامية التي نحلت فيها[٥٢]. فبهذه النظرية يرفض طه حسين كل ما يضاف إلى الجاهليين من آداب خصوصاً النثر و هو يعتمد على منهج الشك الديكارتي التي تعتمد فلسفة ديكارت في شقها الاكبر على الشك المنهجي الذي يقوم على فكرة اساسية مفادها عدم التسليم بما وصل اليه الاقدمون و انما يجب أن تخضع كل أعمالهم للنقد و يري جابر عصفور أن طه حسين انطلق في مشروعه هذا في اقتفاء أثر(وولف) في إنكار شخصية هوميروس و اثر الأستاذ (جابرييل) في وصوله إلى أن سقراط شخص خرافي لم يوجد ولم يعرفه التاريخ[٥٣].

والدكتور زكي مبارك يشك في النصوص النثرية التي وصلتنا من العصر الجاهلي ويقول: ((و ما نقله الرواة من النصوص لا يكفي لتعيين أساليب النثر في العصر الجاهلي وبيان الاتجاهات العقلية التي كان يرمي اليها الكاتبون اذ ذاك، و هو على قلته مما وضع في العصر الاموي و صدر العباسي لأغراض دينية و سياسية و هو لهذا لا يعين مدرسة نثرية ولا مذهباً اجتماعياً و لا راياً عاماً و انما يعين أذواق واضيعه و مذاهبهم و أساليبهم واتجاهاتهم الدينية. ولتاكيد كلامه هذا ياتي بحديث الخنافر الحميري و يعلله ويشرحه ويكشف زيفه فيقول من أمثلة ذلك حديث خنافرة الحميري و هو منقول عن ابن كلبي ومثبت في الجزء الائل من الامالي و هو حديث مختلق وضع بعد الاسلام و قدأضفته إلى النثر المنسوب إلى العصر الجاهلي و..... و الذي وضع هذا الحديث أراد أن يثبت رسالة النبي إلى الجنَّ و هي رسالة لا نعرض لها برفض او قبول، و انما نقرر أن واضعها قصد إلى هذه الغاية مستعيناً في سبيل الوصول اليها بمحاكاة اللغة اليمنية، فذكر ((الزخيخ)) و ((الهوب)) بدل النار و ((الواهر)) بدل الساكن و ((الجحمتين)) بدل العينيين، ليوقع في نفس القارئ صحة الرواية مع أنه يبعد أن تكون اللغة اليمنية في ذلك الحين شديدة القرب من اللغة العدنانية بحيث لا تخالفها إلا في بعض الألفاظ[٥٤])) فهنا يظهر لنا البون الشاسع بين منهجية الدكتور طه حسين و منهجية الدكتور زكي مبارك، فالدكتور طه حسين كان يصرُّ

على تطبيق المنهج التاريخي و المنهج الشك الديكارتي على الادب العربي عامة و النثر خاصة فلهذا نلاحظ انّ بعض الاحيان يسلك طريق الخطاء في بحثه مثلاً لأجل تطبيق هذا المنهج نفي كل الادب الجاهلي بشعره و نثره و هذا لا يلائم مع العقل فلهذا بعض المناهج الأدبية المستحدثة الواردة من الغرب لا نستطيع نطبقها تطبيقاً كاملاً على أدبنا العربي فالدكتور طه حسين درس الادب لاجل المنهج فواجه ما واجه ولكن الدكتور زكي مبارك درس الادب لأجل الادب فنري أنه جعل المنهج في خدمة الادب و احياناً في بحثه يدخل المنهج التاريخي و يذكر الزمان و المكان والبيئة ليصل إلى نتيجة عقلية و تارة يدخل في المنهج الفني كما أسلفنا في تحليله لحديث خنافر الحميري و لهذا نري في دراسته للادب لا يحصر نفسه في منهج خاص لانَّ الحصر يلازمه العي في البحث.

نتائج البحث:

- انَّ النثر العربي ولد في العصر الجاهلي لكن كان بمستوي بسيط جداً ومن أهم انواعه الخطابة و سجع الكهان و الأمثال.
- نزول القرآن الكريم على النبي محمد صلي الله و عليه وآله وسلم أدى إلى تطور النثر العربي و نستطيع بوضوح نشاهد هذا التطور في خطابة صدر الاسلام خصوصاً في خطابة امير المومنين على بن ابي طالب عليه السلام.
- نزول القرآن الكريم بهذا المستوي الفني و البلاغي يدلُ على بلاغة مخاطبيه في ذلك العصر وإن لم يكن للعرب نثر، فَلِمَ التحدي، و التحدي لايكون إلا للأقوياء وكيف يتحدَّي القرآن الكريم قوماً لغتهم كلغة الاطفال.
- نستطيع بوضوح نشاهد إقتباس طه حسين من فكر المستشرقين خصوصا ويليام مرسيه و كارلو نالينو في بحثه حول النثر في العصر الجاهلي وهذا ليس بعجيب وهو متشبع بثقافة الغربيين خصوصاً الفرنسيين.
- إتخذ طه حسين المنهج التاريخي و الشك الديكارتي لدراسة النثر الجاهلي و كان يصرُّ في تطبيقهما على الادب العربي في العصر الجاهلي بشعره و نثره و هذا الاصرار أدى به إلى الخطاء.

- الدكتور زكي مبارك بذهنه الوقاد و إلمامه بالادب العربي إستطاع أن يتصدي إلى نظرية إنكار وجود النثر الفني في العصر الجاهلي و بدلائله الحاسمة إستطاع أن يبين حقيقة و واقع نشأت النثر الفني و ايضاً أنه جعل المنهج في خدمة الادب و احياناً في بحثه يدخل المنهج التاريخي و يذكر الزمان و المكان والبيئة ليصل إلى نتيجة عقلية و تارة يدخل في المنهج الفني كما حلل و قوّم بعض النصوص النثرية في العصر الجاهلي.
- فتبين لنا أنه وافق الدكتور طه حسين بقضية التشكيك ببعض النصوص النثرية في العصر الجاهلي لكنه قدّم دليلاً آخراً لتثبت نظريته -حول وجود النثر الفني في العصر الجاهلي- وهو القرآن الكريم.

هوامش البحث

(١) القيرواني، ابن رشيق،العمدة في صناعة الشعر و نقده،(٢٠٠٠)، تحقيق النبوي عبدالواحد، شعلان، القاهره، مكتبة خانجي،الطبعة الأولى،ج١ ،ص ١٠.

(٢)مارسيه،ويليام،(١٤٠٥)،((اصول النثر العربي))،ترجمة محمود المقداد، مجلة التراث العربي، ربيع الثاني، عدد ١٨، ص ١٠١.

(٣) ابن منظور،لسان العرب ، مجلد الثامن،ماده النثر، القاهره، دار الحديث، ص ٤٣٣٩.

(٤) فيروز آبأدى، القاموس المحيط،(١٩٩٩) ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، مادة (نثر)، ج٢،ص٢٢٩.

(٥) صالح منّاع، هاشم، (١٩٩١)، روائع من الأدب العربي ، الطبعة الثانية ، بيروت: دار و مكتبة الهلال،ص٢١-٢٢.

(٦) علي جواد، طاهر، مقدمة في نقد الادبي،(١٩٧٩)، بيروت، الموسسة العربية للدراسات،الطبعة الأولى،ص٣٩٥.

(٧)حسين عقيل حسين، فلسفة مناهج البحث العلمي،(د.ت) جامعة الفاتح، كلية العلوم الاجتماعية، مكتبة مدبولي،(د.ط)،ص ٤٧.

(٨) عموري، نعيم، (١٣٨٤)، ((الدكاترة زكي مبارك ناقداً))،ماجستير،الدكتور نادر نظام تهراني،جامعة العلامة الطباطبايي، كلية الآداب الفارسية و اللغات الاجنبية،ص٩٥.

(٩) سيد قطب ، النقد الادبي اصوله و مناهجه،(٢٠٣)، القاهره، دار الشرق ، الطبعة الثامنة،ص١٣٢.

(١٠) عموري، نعيم، (١٣٨٤)، ((الدكاترة زكي مبارك ناقداً))،ص٩٥.

(١١) حسين، طه، من حديث الشعر و نثر،(٢٠١٣)موسسة الهنداوي،القاهرة،(د.ط)،ص٢٦.
(١٢) المصدر السابق ص٢٥.
(١٣) نفس المصدر و الصفحة.
(١٤) مارسيه، ويليام، (١٤٠٥)، ((اصول النثر العربي))،ترجمة محمود المقداد، مجلة التراث العربي، ربيع الثاني، عدد ١٨، ص ٩٠.
(١٥) نفس المصدر و الصفحة.
(١٦) حسين،طه، في الأدب الجاهلي، (١١١٩)، القاهره،دار المعارف، الطبعة السابعة عشر،ص٢٨٦.
(١٧)نالينو، كارلو، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية،(١٩٥٤)، القاهره،دار المعارف،(د.ط)،ص٧٨-٧٩.
(١٨)عبدالعال، سالم مكرم، قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية،(١٩٨٨)، بيروت، موسسة الرسالة، الطبعة الأولى،(د.ط)،ص١٢.
(١٩) يونس:٣٨.
(٢٠) حب الله، علي، المقدمة في نقد النثر العربي،(٢٠٠١) بيروت،دار الهأدى، الطبعة الأولى،ص٤١.
(٢١)حسين، طه، من حديث الشعر و نثر، ص٢٥.
(٢٢) المصدر السابق،٢٧.
(٢٣) الوردي، علي ، اسطورة الأدب الرفيع،(١٩٩٤)، لندن، دار كوفان، الطبعة الثانية،ص٢٠٤.
(٢٤) حجاب، محمدنبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي(دراسة تحليلية نقدية للتطور الاساليب)،(١٩٨٦)، مكه المكرمة، مكتبة الطالب، الطبعة الثانية،ص٥١.
(٢٥) الملائكه، نازك، قضايا الشعر المعاصر،(١٩٦٧) منشورات مكتبة النهضة، الطبعة الثالثة،ص ١٨٧.
(٢٦) حسين، طه، من حديث الشعر و نثر،ص٢١.
(٢٧) السابق،٣٦.
(٢٨) باقازي، عبدالله احمد،(١٤٠٣)، الاتجاهات النثرية في القرنين الثاني والثالث للهجرة، السعوديه، الدكتور محمود حسن زيني،جامعة ام القري، كلية اللغة العربية، ص٧.
(٢٩)العسكري، ابو هلال، (الكتابة و الشعر)الصناعتين، (١٩٥٢)، الشارح علي محمد البجاوي،محمد ابو الفضل ابراهيم، دار احياالكتب العربية،الطبعة الأولى،ص ١٥٤.
(٣٠) حب الله، علي، المقدمة في نقد النثر العربي،ص ٦٩-٧٠.
(٣١) السابق،ص٨٨.
(٣٢) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع،(٢٠١٢)، مصر، موسسة هنداوي للتعليم والثقافة، (د.ط)،ص٣٥.
(٣٣) السابق، ٣٦.
(٣٤) السابق٣٧.

(٣٥) الجاحظ، البيان والتبين، (١٩٩٨)الشارح عبدالسلام هارون،القاهره، مكتبة خانجي، الطبعة السابعة،ج١،ص٢٤١.
(٣٦) صالح مناع،هاشم، النثر في العصر الجاهلي،(١٩٩٣)، بيروت، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ص٢٢-٢٣.
(٣٧) أدونيس، علي احمد سعيد، الثابت والمتحول،(١٩٧٨)، بيروت دار العودة، الطبعة الأولى، ج٣، ص٣٠٢.
(٣٨) الوردي، علي ، اسطورة الأدب الرفيع،(١٩٩٤)، لندن، دار كوفان، الطبعة الثانية، ص٢٠٧-٢٠٨.
(٣٩) حب الله، علي، المقدمة في نقد النثر العربي،(٢٠٠١) بيروت،دار الهأدى، الطبعة الأولى، ص ٧٧
(٤٠) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع،ص ٣٦.
(٤١) خفاجي، محمد عبدالمنعم، الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام،(١٩٩٠)، بيروت،دار الجيل، (د.ط)،ص٩٨.
(٤٢) قط، مصطفي بشير،(د.ت)، ((النثر الفني و نقده عند العرب من الشفاهية الي الكتابة))، مجله التراث العربي، عدد ١٠٧،ص ١٤١.
(٤٣) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع،ص ٣٩.
(٤٤) عبدالعال، سالم مكرم، قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية،ص١٦.
(٤٥) نفس المصدر و الصفحة.
(٤٦) حسين،طه، في الأدب الجاهلي،ص١٧.
(٤٧) عصفور، جابر، المرايا المتجاورة (دراسة في نقد طه حسين)،(١٩٨٣)القاهره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ط)،ص٧٠.
(٤٨) حسين، طه، من حديث الشعر و نثر،ص٢٥.
(٤٩) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع،ص ٢٠.
(٥٠) عموري، نعيم، (١٣٨٤)، ((الدكاترة زكي مبارك ناقداً))،ص٣٠٧.
(٥١) حسين،طه، في الأدب الجاهلي،ص ٢٨٨.
(٥٢) السابق،ص٢٨٩.
(٥٣) بلعيفه، رشيد،(٢١٥/١١/١٥) ((اصول المنهج النقدي عند طه حسين في نقد التراث الشعر انموذجاً))،حوليات الآداب واللغات(Université deM'sila) ، عدد ٥،ص٩٦.
(٥٤) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع،ص٣٧.

قائمة المصادر و المراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم

أ- الكتب العربية

١. ابن منظور،لسان العرب، مجلد الثامن،ماده النثر، القاهره، دار الحديث.

٢. أدونيس، على احمد سعيد،الثابت و المتحول،(١٩٧٨)، بيروت دار العودة، الطبعة الأولى

٣. الجاحظ، البيان و التبين،(١٩٩٨)الشارح عبدالسلام هارون،القاهره، مكتبة خانجي، الطبعة السابعة.

٤. حب الله، على، المقدمة في نقد النثر العربي،(٢٠٠١) بيروت،دار الهأدى، الطبعة الأولى.

٥. حجاب، محمدنبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي(دراسة تحليلية نقدية للتطور الاساليب)، (١٩٨٦)، مكه المكرمة، مكتبة الطالب، الطبعة الثانية.

٦. حسين عقيل حسين، فلسفة مناهج البحث العلمي،(د.ت) جامعة الفاتح، كلية العلوم الاجتماعية، مكتبة مدبولي،(د.ط).

٧. حسين، طه، من حديث الشعر و نثر،(٢٠١٣)موسسة الهنداوي،القاهرة،(د.ط).

٨. حسين،طه، في الأدب الجاهلي، (١١١٩)، القاهره،دار المعارف، الطبعة السابعة عشر.

٩. خفاجي، محمد عبدالمنعم، الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام،(١٩٩٠)، بيروت،دار الجيل، (د.ط).

١٠. زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع،(٢٠١٢)، مصر، موسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، (د.ط).

١١. سيد قطب، النقد الادبي اصوله و مناهجه،(٢٠٣)، القاهره، دار الشرق، الطبعة الثامنة.

١٢. صالح منّاع، هاشم، (١٩٩١)؛ روائع من الأدب العربي، الطبعة الثانية، بيروت: دار و مكتبة الهلال.

١٣. صالح مناع،هاشم، النثر في العصر الجاهلي،(١٩٩٣)، بيروت، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى.

١٤. عبدالعال، سالم مكرم، قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية،(١٩٨٨)، بيروت، موسسة الرسالة، الطبعة الأولى،(د.ط).

١٥. العسكري، ابو هلال، (الكتابة و الشعر)الصناعتين،(١٩٥٢)،الشارح على محمد البجاوي،محمد ابو الفضل ابراهيم، دار احياالكتب العربية،الطبعة الأولى.

١٦. عصفور، جابر، المرايا المتجاورة (دراسة في نقد طه حسين)،(١٩٨٣)القاهره، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د.ط).

١٧. على جواد، طاهر، مقدمة في نقد الادبي،(١٩٧٩)، بيروت، الموسسة العربية للدراسات،الطبعة الأولى.

١٨. فيروز آبأدى، القاموس المحيط،(١٩٩٩)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، مادة (نثر)، ج٢.

١٩. القيرواني، ابن رشيق،العمدة في صناعة الشعر و نقده،(٢٠٠٠)، تحقيق النبوي عبدالواحد، شعلان، القاهره، مكتبة خانجي،الطبعة الأولى.

٢٠. الملائكه، نازك، قضايا الشعر المعاصر،(١٩٦٧) منشورات مكتبة النهضة، الطبعة الثالثة.

٢١. نالينو، كارلو، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية،(١٩٥٤)، القاهره،دار المعارف،(د.ط).

٢٢. الوردي، على، اسطورة الأدب الرفيع،(١٩٩٤)، لندن، دار كوفان، الطبعة الثانية.

ب - الرسائل الجامعية

١. باقازي، عبدالله احمد،(١٤٠٣)، الاتجاهات النثرية في القرنين الثاني و الثالث للهجرة،السعوديه، الدكتور محمود حسن زيني،جامعة ام القري، كلية اللغة العربية.

٢. عموري، نعيم، (١٣٨٤)، ((الدكاترة زكي مبارك ناقداً))،ماجستير،الدكتور نادر نظام تهراني،جامعة العلامة الطباطبايي، كلية الآداب الفارسية و اللغات الاجنبية.

ج - المجلات والدوريات

١. بلعيفه، رشيد،(٢١٥/١١/١٥) ((اصول المنهج النقدي عند طه حسين في نقد التراث الشعر انموذجاً))،حوليات الآداب واللغات(Université deM'sila)، عدد ٥،ص٩٢-١٢٥.

٢. قط، مصطفي بشير،(د.ت)، ((النثر الفني و نقده عند العرب من الشفاهية إلى الكتابة))، مجله التراث العربي، عدد ١٠٧، ص ١٣٧-١٥٦.

٣. مارسيه،ويليام،(١٤٠٥)،((اصول النثر العربي))،ترجمة محمود المقداد، مجلة التراث العربي، ربيع الثاني، عدد ١٨، ص ٩٠- ١٠٤.